دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	التحليل السوسيولوجى للإدمان : الاتجاه النقدى نموذجا
المصدر:	المجلة القومية لدراسات التعاطي والإدمان
الناشر:	المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية
المؤلف الرئيسي:	عبدالله، محمود
المجلد/العدد:	مج11, ع2
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2014
الشهر:	يناير
الصفحات:	75 - 102
رقم MD:	883841
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	تعاطى المخدرات، مكافحة المخدرات، علم النفس الاجتماعى، النظريات الاجتماعية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/883841

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

التحليل السوسيولوچى للإدمان
الاتجاه النقدى نموذجا

محمود عبدالله*

اهتم المقال الحالى بطرح التحليل السوسيولوچى لظاهرة الإدمان. وركز بشكل رئيسي على الاتجاه النقدى، وبالتحديد فى تجليه بأعمال مدرسة الدراسات الثقافية، ممثلة فى جهود بول ويليس؛ وفى اتجاه ما بعد البنيوية. بل وتعرض للاعتبارات النقدية المرتبطة بالتيارين معا.

مقدمة

تمثل قضية الإدمان واحدة من القضايا الملحة على أجندة النظرية الاجتماعية. ولقد ساهم فيها أهم تيارين أساسيين، وهما الاتجاه الوظيفى بتنويعاته، والاتجاه النقدى بتوجهاته المختلفة. ولقد سعى كل منهما نحو قراءة الظاهرة كل بحسب الفلسفة التى ينطلق منها. وربما يعد هذا الاختلاف ليس خلافا فى الرؤية فقط والمنهج، بل هو خلاف واضح فى سياسة المعالجة المحتملة التى قد تتخذ سبيل القضاء التام والمكافحة الشاملة، أو التعاطى معها بالنظر فى جذورها واعتبارها جزءا من الشأن الإنساني غير القابل للتخلص منه بيسر، خاصة فى ظل التعقيدات التى تفرضها الثقافة، والقيود المجتمعية، وعلاقات السلطة والمصلحة، وغيرها من العوامل المشكلة للظاهرة، وتدعم بقائها، أو تخفى معالمها، أو تيسر لها فرص التخفى.

والملاحظ على مستوى التنظير السوسيولوچى تغير لغة ومستوى التحليل؛ من تحليل الأنساق الكبرى إلى تحليل القضايا الصغرى. حيث لم يعد المنظرون معنيون

---

* مدرس علم الاجتماع، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية.

المجلة القومية لدراسات التعاطى والإدمان، المجلد الحادى عشر، العدد الثانى، يوليو ٢٠١٤.

بالقضايا الكبيرة القومية، ولا بتقديم فرضيات نظرية شاملة، يكتب لها فهم الشأن البشرى فهما مطلقا، لكنها تتقيد بحدود المكان والزمن الذى تنتج من خلاله رؤيتها. وهو ما يفرض نفسه على الموضوعات المطروحة، وكيفية الاشتغال عليها. فلم يعد الأمر مقتصرا على دراسة انتشار ظاهرة المخدرات وتعاطيها عبر العالم، أو البحث عن العوامل المهيئة لها، بما يجعل الاهتمام منصبا على قضايا جزئية يعزل الظاهرة عن الجسد الاجتماعى الأشمل. بل تم التعامل مع الظاهرة باعتبارها جزء من أسلوب المعاش، أى جزء من ثقافة جماعة اجتماعية.

وقد اتخذ الاتجاه النقدى منذ بدايته الأولى أن يتعامل مع المخدرات وتعاطيها كظاهرة سوسيولوچية مركبة، تتداخل العوامل المختلفة فى تشكيلها، حتى تبلور الاتجاه بشكل أوضح فى تلك الجهود التى قدمها مركز الدراسات الثقافية*. باعتبار التعاطى ظاهرة ثقافية، لا تنفصل عن الأوضاع الاقتصادية أو الاجتماعية. وهو ما يبرز بوضوح فى أعمال واحد من علماء المركز، وهو بول ويليس الذي اهتم بثقافة الشباب، مقدما نظريته حول "الأشكال الثقافية". ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل تجاوز الاتجاه النقدى الطرح الثقافى إلى التعاطى مع الأطروحات ما بعد البنيوية فى أعمال ميشيل فوكو، وجاك ديريدا، وجيل دولوز، وغيرهم. فاستفاد الاتجاه من مفاهيم وتصورات تتصل بطبيعة العلاقة بين السلطة والمعرفة الطبية (علاج الإدمان)، وعلاقة السلطة بتشكيل هوية المدمن وذاته، والضبط الاجتماعى لجسد المدمن، وتفكيك معنى الإدمان ومفهومه، عبر التحليل التاريخي المتعمق لطب علاج الإدمان، وغيرها من الأطروحات الجديدة التى تتجاوب مع التغيرات التى يعيشها العالم فى الوقت الراهن.

---

* هو مركز تابع لجامعة برمنجهام، وهو متخصص فى دراسة الثقافة، وتأسس على يد الباحث البريطانى رايموند ويليامز فى الستينيات وواصل عمله حتى رئاسة ستيوارت هول له.

ومن ثم يحاول المقال الحالى أن يلقى الضوء على هذا الاتجاه النقدى كمثال على التحليل السوسيولوچى لظاهرة الإدمان، بالتركيز على اتجاه مدرسة الدراسات الثقافية البريطانية، كما يتبدى فى أعمال بول ويليس بوجه خاص، وبالنظر فى اتجاه ما بعد البنيوية، وفيما يطرحه هذا الاتجاه من قضايا تتصل بالموضوع. ولا يتم الاكتفاء بعرض هذه الجهود المثمرة، بل ويسعى المقال لمناقشة أهم الانتقادات التى وجهت أو يمكن توجيهها لكلا الاتجاهين الممثلين للدراسات النقدية فى اللحظة الراهنة.

أولا: السوسيولوچيا والإدمان: رؤية عامة للبدايات

تقدم لنا النظرية الوظيفية فى صورتها الكلاسيكية محاولة لتفسير إدمان المواد المخدرة، فالمجتمع الذى يشهد برأيها درجة عالية من التغير الاجتماعى السريع، يشعر فيه الأفراد بالغربة والعزلة، لأنهم لا يجدون إطارا أخلاقيا يجمعهم معا، فيلجأون للتعاطى كوسيلة لهم للتكيف مع مشاعر القلق والإحباط التى أصابتهم نتاج شعورهم بالعجز عن الانخراط فى تفاعلات المجتمع الجديد (Adrian, 2003).

وفى مستوى آخر من التحليل الوظيفى قد ينظر للتعاطى كممارسة ثقافية لها وظيفة اجتماعية، على غير ما هو سائد من تصورات ترى أن تعاطى المخدرات دال على وجود خلل اجتماعى. فبعض الدراسات ذات التوجه الوظيفى ترى فى ممارسة التعاطى ما يعزز علاقات القرابة أو السلطة بسبب ارتباطها بعادات أو ممارسات ثقافية ذات صلة بتقوية الاندماج والتماسك الاجتماعى بين العائلات والقبائل، أو ترسخ لسلطة. وهكذا، ينظر للعلاقات الاجتماعية التى تتشكل فى أوكار إدمان الأفيون فى "لاوس" كمصدر بديل للاندماج الاجتماعى للذين ليس لديهم أسرا تأويهم. وبالتالى من البديهى أن نرى كيف تقوم تجمعات الشباب فى الأندية البريطانية فى التسعينيات بدمج الأفراد فى بنى مجتمعية جديدة فى عصر تفككت فيه المصادر

التقليدية للاندماج الاجتماعى؛ مثل الأسرة أو مكان العمل التقليدى أو المسار الوظيفى التى تحيط بالشباب (Maning, 2007, p. 13).

وقد يهتم التوجه الوظيفى بمعالجة فعل التعاطى كاستجابة لأوضاع المجتمع، ولوضعيته فيه. وفى هذا الإطار قدم روبرت ميرتون تصورا وظيفيا يفسر به أسباب اللجوء للإدمان. فالمشكلة التى يعانى منها المجتمع الأمريكى برأيه هى وجود خلل بنيوى عبارة عن انفصال بين النظام المعيارى ووسائل الحصول على الفرص التى يوفرها النظام الاجتماعى عبر التعليم ومن خلال الترقى المهنى. أى أن البنية الاجتماعية يتخللها فوارق كبيرة قضت على وسائل تحقيق النجاح التى تتوفر أمام الغالبية العظمى من أبناء الطبقة العاملة الأمريكية. فالتعليم العام، وزيادة أعباء الفقر على الحياة الأسرية، وخلافات العمل، هى عوامل ساهمت فى الحيلولة دون النجاح (Ibid., p. 14). ورأى أن مدمنى المخدرات ومتعاطى المسكرات يمثلون الاستجابة الانسحابية، وهى واحدة من استجابات خمس يلجأ لها الناس للتكيف مع الخلل البنيوى. فالمدمنون يشعرون بالهزيمة ويضطرون إلى اللجوء لآليات الهروب بعدما لم يعودوا قادرين على تحقيق أهدافهم بالطرق المشروعة. فالفشل المستمر في الحصول على المراد بالسبل الشرعية، أو غير الشرعية، يجعل الحل الوحيد أمام الفرد هو اللجوء للهرب عبر الإدمان (Merton, 1938).

هذا التصور النظرى أعاد كلوارد وأولين توجيه مساره، بالإشارة إلى أن المدمن ليس ضد استخدام الطرق غير الشرعية لتحقيق النجاح. فهو يعانى من "فشل مزدوج"، الفشل فى خوض المسارات الطبيعية والمستحبة، والعجز عن استخدام الطرق غير الشرعية، ما يجعله بعيدا عن الثقافة السائدة وطرقها الشرعية، وعن الثقافات الفرعية المنحرفة وآلياتها غير الشرعية، فيفشل فى تحقيق أهدافه (Weinberg, 2011).

والملاحظ أن المعالجة الوظيفية ركزت على الإدمان وتعاطى المخدرات باعتباره جزءا من تجربة العزلة والانسحاب عن المجتمع. وهو ما نجده أيضا فى عدد من المصادر الماركسية. وعلى الرغم من أن بعض المؤلفات التى اهتمت بالنظرية الاجتماعية وعلاقتها بالإدمان، قدمت الأطروحات التى حرص عليها الخطاب العلمى الوظيفى، لم تستطع أن تضع يدها على الإسهام الماركسى، واكتفت بالإشارة لسيناريوهات وإمكانات التطبيق. من قبيل ذلك قدرة النظرية على فهم التحيز القانونى ضد المدمنين من أبناء الطبقة العاملة، أو اقتصار السياسة الأمنية على صغار التجار وعدم توجيهها باتجاه الشبكات التجارية الأوسع. بينما يشير التراث الماركسى فى واحد من تجلياته، وهو كتاب تاريخ الطبقة العاملة لفريدريك أنجلز، إلى الظاهرة بوضوح. ذلك أن هناك علاقة بين الاغتراب والإقبال على تعاطى المسكرات، بحسب وصف انجلز للعامل الأيرلندى: "ولأن الشيطان الفقير لابد له أن يتمتع بمتعة واحدة، فيما المجتمع يغلق دون وجهه السبل الأخرى، نجده ينهمك فى تعاطى المسكرات... فهو يتمرد حتى يصل لذروة السكر" (Engels, 2008). فالعامل الذى **يفقد السيطرة** على السلعة التى يقوم بإنتاجها ويحصل على خيرها صاحب العمل، يشعر بالاغتراب، ويكون التعاطى فرصة له ليعكس من خلاله فقدان السلعة، بأن **يفقد السيطرة** على جسده عبر السكر، باعتبار جسد العامل هو أصل الإنتاج المستغل.

ولعل هذا ما ترجمته نظرية الصراع، عندما رأت أن المجتمعات التى ينتشر الفقر فى أرجائها، ولم يتحسن الاقتصاد أو أصابه الوهن فيها فانهار، تتأصل فيها مشاعر اليأس والإحباط والرغبة فى العزلة، بما يجعل المتعاطى راغبا فى الهرب من الوضع المعيشى المقيت لوضع جديد يضفى سعادة مؤقتة على حياته (Goode, 2007, p. 420).

وعلى أساس هذا التصور الطبقى، يرى أنصار نظرية الصراع أن الطبقية لها تأثير على نوعية وأسلوب التعاطى. حيث يوجد برأيهم نوعان لأشكال التعاطى. أولهما التعاطى الوقتى أو التعاطى بغرض المتعة، الذى يجد سبيله بين أبناء الطبقة الوسطى وشريحتها العليا. وهو تعاطى يمتد من التجريب، فالاستخدام المرحلى، حتى تكرار التعاطى المنضبط. ومستخدموه لا يمثلون بحد ذاتهم مشكلة للمجتمع، فمن يمثل مشكلة حقيقية، برأى أبناء الطبقة الوسطى، هم من يمارسون النوع الثانى: التعاطى المفرط. وهو النوع الذى يؤدى بصاحبه إلى الإدمان بعد دوام التعاطى. ويقف وراء القيام به أسباب اليأس والاغتراب والفقر وتفكك أواصر المجتمع. ويرى الخبراء أن الانتقال من النمط الأول إلى الثانى يحدث فى المجتمعات الفقيرة أكثر من المجتمعات الغنية (Ibid., p. 421).

وهكذا جاءت البدايات معنية بالفعل الاجتماعى (التعاطى) بوصفه ثقافة تارة، وكاستجابة تارة أخرى، ولكنها أغفلت التحليل المعمق لتفاصيل الفعل الاجتماعى كخبرة إنسانية، وعلاقة هذه الخبرة بالثقافة والطبقة والمجتمع، ودور المعرفة الطبية فى تشكيل ما الذى يعنيه الإدمان، ومن هو المدمن؟، وعلاقة هذه المعرفة بالسلطة، والسياق الاجتماعى والتاريخى لتطورها، وغير ذلك من القضايا التى استطاع الاتجاه النقدى تحليلها بتوسع، وملأ فراغها.

ثانيا: إسهام الدراسات الثقافية

تنطلق تحليلات "الدراسات الثقافية" من الثقافة، والواقع أن ذلك ليس جديدا على العلوم الاجتماعية، فقد كان الاهتمام واضحا بالتعامل مع استهلاك المخدرات كممارسة ثقافية شعبية، بالنظر فى التعاطى كجزء لا يتجزأ من الثقافة الشعبية؛ أى عدها جزءا من الأطر الرمزية التى تضفى المعنى على المواد المخدرة، وطرق تعاطيها، والجماعات الاجتماعية المتعاطية لها. وقد كان علم الأنثربولوجيا أول من التفت إلى ضرورة

دراسة تعاطى المواد المخدرة فى ضوء الثقافة الشعبية (Maning, 2007, p. 11). وفى هذا الإطار مثلت محاولة مارى دوجلاس للتمييز بين الطاهر والدنس فى كتابها الهام "الطهارة والخطر"، واحدة من المساهمات التى أثرت فيما بعد فى تحليل التعاطى. حيث رأت أن جميع المجتمعات تتوفر على نظام تصنيف يرسم حدود العالم الاجتماعى. وبمقتضى هذا النظام يستطيع الأفراد تمييز الطالح من الصالح، والمحلل من المحرم، والمقدس من المدنس، وما ينبغى أن يؤكل أو يشرب، وما هو محرم. وعندما يطبق هذا الفهم على المخدرات ومشكلاتها، فإن الملاحظ هو أن استخدام المواد المخدرة فى العلاج داخل المستشفيات أمر مقبول وشرعى، بينما استخدامها بالشارع طلبا للذة غير مقبول.

ولقد كانت الدراسات الثقافية البريطانية منذ البداية دراسات ذات طابع سياسى، وتعمل فى اتجاه بحث إمكانات المقاومة فى ثقافات فرعية معارضة. وقد مرت بمرحلتين فى تطورها. إذ ثمنت فى مرحلتها الأولى إمكانات ثقافة الطبقة العاملة، بينما حاولت فى المرحلة الثانية أن تشير لمقاومة الشباب للهيمنة الرأسمالية، عبر تبنى ثقافة فرعية تخصهم. وبذلك تميز دراساتها بين نوعين من الشباب: الشباب الذين يتوافقون مع رموز الزي والموضة والسلوك والأيديولوجيا السياسية المهيمنة؛ والشباب الذين يتعاطفون مع ثقافة فرعية شبابية كثقافة البانك، أو ثقافة السود، فى معارضة للهوية السائدة، وتبنيا لهوية فرعية نقيضة (إدواردز تيم، ٢٠٠٨).

ولقد قدم رواد المدرسة مجموعة من التصورات النظرية التى ساهمت فى توجيه رؤية الباحثين فى فترة السبعينيات وما بعدها، من أجل فهم ظاهرة "الثقافة الفرعية". كان أولها التركيز على الطبقة العاملة باعتبارها مجتمعا مرتبطا بالجيرة والحى، وللأسرة دور فى صنع تماسكها. ثانيا؛ أن سيرة الطبقة العاملة أصلت فى الذهن ثنائية "نحن" فى مقابل "هم"، بدرجات متفاوتة، علاوة على بناء أجندة بحثية لكتابة التاريخ.

ثالثا؛ الاهتمام بكل ما هو ثقافى: من طقوس، وتقاليد، وممارسات، ومعانى. رابعا؛ أن الحياة المعاصرة، التى تتوفر فيها الثقافة الجماهيرية، بأشكالها المختلفة، وتنطوى على الترفيه والطابع الاستهلاكى، هى حياة تهدد كل هذا، وبالتالى ينظر لها نظرة سلبية: حيث يصور الواقعين تحت تأثيرها من الشباب باعتبارهم "البروليتاريا الرثة" (Gelder, 2007).

وهكذا كانت الثقافة هى الموضوع الرئيسى للتحليل، ومع الوقت احتل مفهوم الثقافة الفرعية ومفهوم الثقافة المضادة موقعا هاما فى التحليلات التى يقدمها الباحثون. فحاولوا أن يقدموا تعريفاتهم وتصوراتهم لمعنى المفهومين، فى إطار تاريخ التصورات النظرية التى تأصلت مع الدراسات الرائدة. وكان من بينها محاولة ديك هيبديج التمييز بين شكلين من أشكال الثقافة الشبابية. أولها الثقافة المضادة التى يشير معناها إلى جملة من ثقافات شباب الطبقة الوسطى التى نشأت فى الستينيات، وازدهرت فى الفترة من ١٩٦٧-١٩٧٠. وثانيها هى الثقافة الفرعية التى تمثل ثقافة رمزية يعبر أطرافها عن معارضتهم بصيغ رمزية. ولعل الواضح أن أبناء الثقافة المضادة يختلفون عن أبناء الثقافة الفرعية، وذلك بفضل ما لديها من أشكال مختلفة من المعارضة السياسية والأيديولوجية الواضحة للثقافة السائدة (النشاط السياسى، والفلسفات المتجانسة، والبيانات)، وبفضل امتلاكها أيضا لمؤسسات بديلة (صحف، ومجلات، وجمعيات... إلخ)، فى شكل أكثر وضوحًا للمعارضة لما هو سائد ومستقر في الثقافة العامة (Hebdige, 1979).

ولعل الأمر الملفت هو أن الدراسات الثقافية قد تناولت موضوعات وقضايا عديدة، وفضاءات تحليلية متنوعة، لكنها لم تجعل من المخدرات موضوعا محوريا، واهتمت بها فى إطار دراسة ثقافة الشباب. وظل الموضوع فرعيا، بل جزءا من دراسة الثقافة بشكل عام، وهو ما نجده بوجه خاص لدى بول ويليس، وفى دراساته حول

ثقافة الشباب، باعتباره من أهم المنظرين فى الموضوع. فقد اهتم الرجل بثقافة أبناء الطبقة العاملة والوسطى، وخص اهتمامه بثقافتين: ثقافة الهيبيز، وثقافة راكبى الدراجات البخارية. ففى كتاب "المقاومة من خلال الطقوس"، وفى فصل حول ممارسات الهيبيز فى تعاطى المخدرات، يهتم بول ويليس بدور الثقافة فى تشكيل خبرات الفرد بشأن المخدرات، وكيف أن المخدرات يتم تعلمها اجتماعيا مستفيدا من أدبيات المدرسة التفاعلية الرمزية والدراسات الإثنوجرافية فى علم اجتماع الانحراف، كما تتجلى فى الفصول التى خصصها هوارد بيكر فى كتابه "الغرباء"، ونقاش جوك يونج فى كتاب المتعاطين (Willis p., 2014).

على أننا نستطيع تمييز عدد من السمات المميزة لتجربة التعاطى بحسب بول ويليس فى ارتباطها بالواقع الاجتماعى: **المغايرة التخيلية:** فتعاطى المخدرات برأى المتعاطين يساعدهم على الدخول فى التجربة الحسية الذاتية، و**الارتهان بالحاضر:** حيث يفضل المتعاطون الارتباط بالحاضر، والشعور بالحرية والحركة والشعور باللحظة الراهنة، على غير التصور التقليدى للزمن المرتبط بالعصر الصناعى المنضبط. فالزمن التقليدى هو زمن منضبط محدد بقواعد الانتقال من الماضى للحاضر للمستقبل. بينما الزمن فى التجربة الشعورية للمتعاطين ليست تجربة زمنية خطية، لكنها تجربة مرتبطة بالآنى، بما ينفى فى الواقع فكرة الزمن من أساسها، أو على حد قول أحد المدمنين "كنت أدرك أن الوقت من صنع الإنسان، وهو شىء ليس له وجود، فهو عدم، شىء صنعه الإنسان لبرمجة نفسه" (Willis, 2006).

وبحسب ويليس فإن جوهر الدور الجدلى للمخدرات هى توفيرها للمادة الخام لخبرة استثنائية ومتفتحة، يمكن تفسيرها اجتماعيا بدقة، وتأمل جوانب الوعى والعمل القابلة للتطوير، وتعديل معرفة المدمنين بالمخدرات وفقا لها (Willis, 2014).

إن ما قام به بول ويليس بالفعل هو ترجمة للفلسفة الظاهراتية فى معاينتها للخبرة الذاتية، أى رصد التجربة المعاشة، التجربة الحية التى يمر بها المتعاطى، كما يراها هو، دون التقيد بأحكام قيمة مسبقة، أو تصور لفرضياتها، أو حدود لملامحها. حيث استطاع ويليس أن يرصد تجربة التعاطى كخبرة ذاتية معيشية، قابلة للإمساك بتفاصيلها، سواء اتصل الأمر بنوعية المخدر، وأشكاله، وطرق تعاطيه على النحو الذى يجلب اللذة، واللذات المصاحبة لفعل التعاطى، والطقوس المرتبطة به، والفروق بين أنواع المخدرات وأشكالها، والتوقعات التى يحملها المتعاطون بأذهانهم ونقلت إليهم من مدمنين أو مجربين. علاوة على ذلك يرصد أشكال المتعاطين، وأنماط خبراتهم بحسب نوع المخدر، بحيث يمكنه التمييز والتفريق بين ثقافة المتعاطين من أبناء ثقافة الهيبيز، ومن هم مجربون طارئون، لم يعقدوا نيتهم على مواصلة التعاطى ومداومته. وبناء على هذه المعرفة التجريبية، يربط التجربة المرصودة بالثقافة العامة التى يصنعها الشباب ليعبروا بها عن رؤاهم المحبطة. فالمخدرات بالنسبة لهم مجرد وسيلة ينتقلون بها فى رحلة من واقع حقيقى إلى واقع متوهم، أو بتعبير ويليس يخترقون هذا الحائط الذى يفصل الواقع الحى الذى يعيشونه إلى واقع جديد من واقع خيالهم المصطنع.

ولعل تحليلات بول ويليس يتردد صداها لدى ديك هيبديج فى دراسته للثقافة الفرعية للشباب. حيث يوضح لنا جانبا من التناول النظرى لاستخدام المخدرات. فهو يرى فى استخدام الشباب للمنشطات وسيلة لردم الهوة بين تصورهم لذواتهم وما يعيشونه فى الواقع الفعلى، سواء بعملهم كعمال شبه مهرة أو كعمال يدويين أو عملهم بوظائف وضيعة. وهنا يشير إلى نواتج التعاطى من مشاعر الغطرسة والحدة وفرط النشاط وغيرها من المشاعر التى لا يعيشها الواحد منهم على أرض الواقع. وعلى هذا النحو ترتبط ممارسة التعاطى بالواقع الاجتماعى الذى يحياه الفرد. إذ لا تعكس

ممارسة التعاطى الوضع الاجتماعى للمتعاطى لكنها بالأحرى تجعله يعيش الواقع الذى يأمله (Ibid., 2014).

ولعل أى محاولة لنقد تحليلات ويليس ستصوب باتجاه انطلاقها من وعى وخبرة المبحوثين، دون الوعى بأنه في واقع الحال أمام وعى تشكل من خلال القوى التى يعارضها فى الوقت ذاته. فليس الأفراد سابقون على الخطاب، فخطاب الإدمان هو خطاب سابق على وجودهم. هذا النوع من التحليلات التى تجعل من الفاعل الاجتماعى محورا، وإن بدت ديموقراطية، ينبغى أن تدرك أن ذاتية الفاعل تتشكل بفعل خطابات سابقة على وجودها، وأن الخبرات المعيشية هى بحد ذاتها جزء من هذا الخطاب. إنها فى الواقع ترهن الحقيقة بما يطرحه الفاعل الاجتماعى (المدمن)، دون اتخاذ مسافة نقدية، وهو ما يؤدى إلى إغفال الخطاب الطبى ودوره فى تشكيل رؤية الفاعلين.

ومن جهة أخرى، تعتمد تحليلات الدراسات الثقافية فى طورها الثانى، فى المرحلة التى شهدت أعمال جيل بول ويليس على مفهوم "التجانس". إذ يحتل مفهوم التجانس والتعارض موقعا متميزا فى التحليل. فمن جهة تعارض ثقافة المخدرات السائدة لدى الشباب الثقافة السائدة، بينما تتجانس مع ثقافة الطبقة التى ينتمى لها هؤلاء الشباب، وتجسد رؤيتهم لواقعهم. وهو المنهج الذى اتبعه ويليس في تحليل ثقافة راكبى الدراجات البخارية. إذ أن هؤلاء الشباب ينغمسون فى موسيقى الروك ويقودون دراجاتهم بسرعات عالية ليعبروا عن قوتهم فى حياة خشنة، فيترجمون بذلك ثقافة الرجال فى الطبقة العاملة التى تؤمن بسيطرة الرجل على الآلة (الدراجة). وبهذا تكون ثقافة المخدرات هى فى الواقع وسيلة للتكيف والتماهى مع الطبقة (Sulkunen, 2002). بينما يمكن القول بأن واقع المخدرات هو واقع بديل، ومغاير لواقع الحياة اليومية للطبقة التى ينتمى لها الفرد. ذلك أن واحدة من وظائف طقوس التعاطى هو "البوح"،

الذى يتم من خلاله الانتقال من الوعى الفعلى إلى الوعى الممكن، من وعى الطبقة التى ينتمى لها الفرد إلى الوعى المحتمل بواقع جديد تكابد الطبقة للوصول إليه.

ولعل أحدث الأعمال المستفيدة من رؤية "الدراسات الثقافية"، قد أدركت ضمنا هذه الانتقادات، حيث حاولت من طرف أن تدرك الأهمية التى تنطوى عليها المعرفة الطبية فى تشكيل الوعى، وما تتعرض له من تفسيرات وتأويلات بما يشكل ما تسميه إحدى الدراسات بـ"ثقافة علوم الأعصاب" (Frazzetto & Anker, 2009)، أى جملة الممارسات الثقافية التى تهتم بالمعرفة التى تقدمها العلوم العصبية، وتشتغل عليها بالتأويل والتفسير، وهو مبحث غير مسبوق وهام فى سياقه. حيث يتم الاهتمام بما يجرى من تفاعل خلاق بين صور الثقافة المختلفة، من أفلام، ووثائقيات، وإعلانات، وآداب، مع النتائج العلمية المكتشفة داخل علم الأعصاب. وهو ما يثرى الدراسات المعنية بثقافة المخدرات والإدمان، عند محاولة فهم العلاقة بين المعرفة العلمية والخطاب الطبى، من جهة، والممارسات والمنتجات الثقافية من جهة أخرى.

ومن زاوية مختلفة ابتعدت دراسات أخرى عن الفاعل الاجتماعى بالمعنى الرومانتيكى كما عرض له ويليس، وتوجهت مباشرة إلى دلالات ومعانى "الإدمان" كخطاب معرفى مراوغ، مثلما نجد فى عمل مورتين نيسين "كتابة ثقافات المخدرات" (Nissen, 2012). وفيه يبين اختلاف تأويل وفهم علاقة المعرفة الخبيرة للمشتغلين من الخبراء فى حقل المخدرات بمعرفة المدمنين وخبراتهم حول التعاطى، عبر ما طرح عليه من تفسيرات من المبحوثين، تتصل بإمكانية تجاور شكلين من أشكال المعرفة على أحد المواقع الإلكترونية المعنية بالموضوع. حيث يوضح التحليل أن كتابة المدمنين لخبراتهم يوحد رؤيتهم، ويجعلهم يشكلون جماعة اجتماعية، لها رؤيتها التى توحدها، أى تتشكل هوية جديدة لهم، وذاتية مختلفة ناتجة عن تفاعل الخطابات، خطاب المعرفة العلمية وخطاب المعايشة التجريبية للمدمنين.

ثالثاً: الاتجاه ما بعد البنيوى

وتستند التحليلات فى هذا الاتجاه على أعمال عدد من مفكرى "ما بعد البنيوية" من مثل ميشيل فوكو، وجاك ديريدا، وجيل دولوز، وزيجمونت بومان. وتعتمد على مفاهيم السلطة والمعرفة والخطاب، والاستهلاك، وتفكيك الدلالة، وغيرها من المفاهيم التى تناولتها أعمال هؤلاء المفكرين. وتبتعد هذه التحليلات عن دراسة ثقافة المخدرات، بل هى فى مجملها معنية بالخطابات وصراعاتها، وتشكيلها لهوية المدمن، وتحولاتها عبر الزمن، وارتباطاتها بالسلطة، عبر التاريخ، ودورها فى الرقابة على الفرد وضبطه اجتماعيا، وتشكيله لمعايير سلوكه، وحركته عبر الزمن والمكان.

المعرفة والسلطة والذاتية

إن الأدبيات النقدية التى تطورت بفضل التراث الاجتماعى- الثقافى، قد تأثرت بأعمال فوكو فى فهم العلاقة بين المعرفة والسلطة وتشكيل الذات. فقد استغل الباحثون مقولة أساسية مفادها أن الخطاب الطبى حول الإدمان هو خطاب علاجى وسياسى سلطوى، يصنف ويضع المعايير ويضبط الذوات. وفى دراسة إثنوجرافية حديثة، اتخذت من علم الدلالة أداة لها، يتبين لنا هذا الارتباط بين تشكيل الذات والمعرفة الطبية، عبر تحليل خبرة علاج الإدمان. فالمقولات الطبية المقدمة لعلاج مريض الإدمان، هى ذاتها المقولات التى تشكل ذاتية المدمن. هذا ما استنتجته سمرسون كار فى تحليلها للبرنامج الأمريكى لعلاج إدمان نساء الشوارع. إذ توضح لنا كيف يعول فريق البرنامج على اللغة والحديث. فالهدف الأساسى من البرنامج هو أن تمتلك المتدربات القدرة على التعبير عن ذواتهن باكتفاء ذاتى، حيث يدربن على الحديث عن ذواتهن بصدق، للتخلص من خداع الذات. فالإدمان بحسب هذا الفهم العلاجى هو شأن شخصى، مقيد بحدود ذات المدمن. إذ يهدف البرنامج إلى الوصول

إلى ما يخفيه المدمن من حقائق عن ذاته، الحقائق التى تغيب خلف مشاعر الغضب والشعور بالعار والرفض(Fraser et al. 2014).

وترى المؤلفة أن هذه الثرثرة هى سمة مشتركة فى العلاج الأمريكى المعاصر لتعاطى المخدرات. فما إن تدخل لجلسة بقيادة طبيب داخل منظومة العلاج الرسمى أو أن تزور واحدة من مجموعات "زمالة المدمنين المجهولين" المنتشرة فى جميع أنحاء الولايات المتحدة، حتى تكتشف أن إعادة تأهيل مدمنى المخدرات تدور حول إعادة تأهيل علاقة المتعاطى باللغة. وتجد فيها المقدمة المألوفة: "مرحبا، اسمى (س) وأنا مدمن"، ويتبع الجملة سرد لحكاية منظمة. ومن خلال تتبع مسارات الحكاية التى تربط المدمنين بماضيهم وبالشفاء والمستقبل النظيف، يمكن الوصول إلى دواخل العملاء، الداوخل التى يُعمل فيها المعالج أدواته العلاجية. فالعديد من علماء علاج التعاطى يرون أن الحديث عن السيرة الذاتية يساعد المدمنين فى كسر جدار "الإنكار" الذى يميز حالة الإدمان وبالتالى يمكن لهم أن يجدوا ذواتهم (Carr, 2006, p. 635). ولقد اعتمدت الباحثة على بيانات مقابلات مكثفة مع المدمنين والموظفين، وبناء عليها اهتمت بالتركيز على ثلاث قواعد أساسية للغة السليمة التى يسعى لها المعالجون: الصدق، والانفتاح، والاستعداد. وهى القواعد التى يستخدمها المعالجون لتوجيه حديث المدمنات عن أنفسهن. فيكشف محتوى الحوار عن: خطايا الماضى وعار الحاضر الذى يحكى بهدف التعافى (Ibid., p. 633).

وهكذا عبر تحليل لغوى لحواراتها مع المبحوثين، استطاعت الباحثة أن تبين كيف أن هذه اللغة السليمة التي تترجم القواعد الثلاثة الأساسية هى لغة المؤسسات السلطوية التى تعجز عن الإنصات لانتقادات المتلقين لخدماتها، وهو ما كشفت عنه فى تحليلها لاثنتين من بين المدمنات اللاتى تركن البرنامج لشكواهن من عدم القدرة على البوح. فالحوار بين المدمنة ومنسق البرنامج قد وصل لطريق مسدود.

الضبط الاجتماعى لجسد المدمن

فى هذا الجانب التحليلى، لا يركز المحلل على لغة الخطاب الطبى، أو لغة العلاج المطبق، بل على الممارسة العلاجية داخل العيادات، كما هو الحال فى الدراسات التى اهتمت بنظام عيادات الميثادون. ففى دراسة لكريستوفر سميث C. Smith يتبين لنا كيف تتشكل ذات المدمن عبر ممارسات العزل الاجتماعى والمكانى داخل عيادة الميثادون. ففى داخل عيادة تورنتو درس الباحث مكان العيادة وموقعها وطريقتها فى مراقبة المرضى المترددين عليها، وتبين له من واقع المادة التى قام بجمعها ما يتعرض له هؤلاء من وصم لهم كقوى غير منتجة ومصدر للخطر.

فقد شهدت منطقة البحث تطورات ملفتة. فقد أدى إغلاق المصانع في المنطقة إلى هجرة عدد من السكان عنها مما جعلها منطقة خاوية وأحالها مع الوقت إلى ملجأ مؤسسات الخدمات الاجتماعية، مؤسسات الإيواء، وعيادات علاج الإدمان غير الحكومية، لكن مع بداية القرن الواحد والعشرين حدثت تغيرات أسفرت عن وجود موجة جديدة من الاستثمارات ساهمت فى عودة أبناء الطبقة الوسطى العليا، وبدأ الترويج لخطاب جديد، وهو خطاب "المدينة الإبداعية". ونظرا لأن المنطقة فى الأصل منطقة صناعية سكنتها الطبقة العمالية، فقد كان سكانها من هذه الطبقة التى لم تهاجر المكان، فيما تشكل فى الأذهان صورة للمكان كجماع لطبقتين، يشكلان معا صورة "للقرية المتمدنة"، التى تجمع بين الماضى ورموزه والحاضر. وجاء الوافدون وتشكلوا حول الخطاب الجديد وأخذوا فى الترويج له، من أجل تحسين أحوال المنطقة، وتنقيتها مما يلوث جسدها الاجتماعى. واعتمدت حملة الترويج التى قادتها رابطة رجال الأعمال على ثلاث إستراتيچيات استهدفت البلدية، وطب الإدمان، والمدمنين (Smith, 2010).

وهكذا مع الوقت تشكل خطاب مجتمع مدنى منحاز ضد المدمنين، يحمل رؤية الرأسمالية الجديدة، الحديث عن "المدينة الإبداعية"، المدينة التى تجمع بين التراث والحداثة، ما يقتضى التخلص من مهددات الجسد الاجتماعى الجديد، ما قاد إلى الوصم الاجتماعى للمدمنين؛ أو بالأدق لأجسادهم المهددة للجسد الاجتماعى للمدينة الجديدة.

كذلك طبق فيليب برجواس مفاهيم ما بعد بنيوية فى تحليل علاقة السلطة بتشكيل ذات المدمن، وتغيير هويته، بل والتأثير فى حياته الاجتماعية. لقد قام الباحث بالتطبيق على نظام عيادات الميثادون، وهو نظام يستهدف مدمنى الهيروين، بهدف علاجهم باستخدام مادة الميثادون. ولكى تستطيع السلطة تمرير خطابها العلمى المؤصل لمفهوم "المدمن"، ميزت بين متعاطى الهيروين ومتعاطى الميثادون. وعلى الرغم من أن المادتين – الميثادون والهيروين– موادا مخدرة تغير من كيمياء جسد المتعاطى ووعيه، يوصف متعاطى الهيروين بالمجرم، مدمر نفسه، وغير المبالى، فيما يوصف متعاطى الميثادون بالمواطن المريض، المنضبط في سلوكه، الجدير بالثقة، الماضى على طريق التعافى. فالأول مجرم، والثانى هو المريض، أو العميل، أو المستهلك (Bourgois, 2000, p. 169). إن هذا التباين اللغوى له جذوره المتأصلة طبيا فى التنظير لضرورة إحلال الميثادون بديلا علاجيا. إذ مثلما كان الهيروين والكوكايين علاجا لتعاطى المورفين فى القرن التاسع عشر، استخدم الميثادون بعد الحرب العالمية الثانية علاجا لتعاطى الإدمان. فهو يقوم بإعاقة الشعور باللذة والألم الناتجين عن التعاطى (Ibid., p. 169).

وقد استهدف نظام عيادات الميثادون قطع صلة المدمن بالشارع، وبمجتمع المتعاطين، عبر وضع ضوابط على عملية تسليم العلاج للمريض. حيث تتم ممارسة العلاج داخل العيادة الطبية، ويحظر أن يحصل عليه بالمنزل، بل أمام أعين موزع

الدواء، إلا إذا كان مريضا حسن السلوك واستثني وحصل على هذه الميزة. لكن محاذير وضوابط نظام العيادات جعل العلاج متاحا فقط لكبار السن المنهكين الذين لم يعودوا يأملون فى الحصول على عائد يومهم من اقتصاد الشارع كالشباب (Ibid., pp.178-179).

ويشير المؤلف فى تحليله إلى أن دخول هذا النظام قد صاحبه صراع بين خطابين، الأول: خطاب التعامل مع الإدمان كمرض يحتاج للعلاج بالأدوية؛ أى الخطاب المؤيد للعلاج بمادة الميثادون، الذى تبنته المؤسسة الطبية ممثلا فى المعاهد القومية المتخصصة فى الولايات المتحدة، والثانى: خطاب المنع، خطاب أطلق عليه الباحث عبارة "فقط قل لا للمخدرات"، الذى يرفض العلاج الدوائى كلية، ويعتمد فى مواجهته للإدمان على حث المواطنين على استثمار إرادتهم وحسهم الروحانى، وتقف من وراءه قوى من المؤسسات القانونية والتشريعية (Ibid., p. 173).

وترتب على هذا الصراع فشل العلاج، وتغييره لهوية العملاء المتعاملين مع العيادات. فقد ألقى الصراع بثقله على تحديد مستوى الجرعات المقدمة للمدمن من العقار. فخطاب التحريم والمنع يرفض حصول المريض على جرعة كبيرة من العلاج، على الرغم من إجماع الباحثين على أن أكبر مشكلة تقع فيها عيادات الميثادون هو عدم حصول المدمنين على الجرعات الكافية (Ibid., p. 180).

ومثلما تبين لميشيل فوكو من أن نظام السجن كان يستهدف القضاء على الجريمة، لكنه على مستوى الممارسة وفى التطبيق أدى لتفاقم حجم الجريمة وزيادة عدد المجرمين، كذلك فإن نظام عيادات الميثادون، استهدف علاج مدمنى الهيروين، لكنه بشهادة المبحوثين، وما عايشوه من أوضاع ترتبت عليه، فقد حولهم من مدمنى هيروين إلى مدمنى ميثادون، مما تسبب فى تغير حياتهم، وعدم قدرتهم على السيطرة عليها (Ibid., p. 186).

الإدمان وقضايا الاستهلاك والعولمة

وفى هذا المستوى من التحليل ينتقل الاتجاه النقدي لوضع القضية فى إطار ثقافى اقتصادى؛ أى فى إطار ارتباطها بثقافة الاستهلاك والعولمة وتحولاتها. فعلى غير المعتاد، يأتى هذا التحليل بعيدا عن المستقر فى الأدبيات التى تناولت قضية الإدمان. فالساسة وصناع القرار تعاملوا معها تعاملا أخلاقيا، بينما عالجها الأطباء والمشتغلون بالصحة العامة كمشكلة صحية، ورآها العاملون فى المجال القانونى جريمة تستحق العقاب. والمخدرات فى الأخير هى سلعة يتم تداولها واستهلاكها داخل أسوار الاقتصاد غير الرسمى الذى نما واتسع فى الآونة الأخيرة. ولقد أصبح واضحا فى هذا التصور الجديد أن الشباب لا ينخرطون فى التعاطى كنوع من الانسحاب من المجتمع كما اقترح روبرت ميرتون سلفا، بل إن ذلك تعبير عن انخراط بديل. فهؤلاء الشباب يعرضون أنفسهم للمخاطر، ويشاركون فى الاقتصاد غير الرسمى، يبيعون المخدرات ويشترونها، بل ويستهلكونها، سعيا منهم للتخلص من الأعباء الاقتصادية والنفسية والاجتماعية المترتبة على بطالة أيديهم (Seddon, 2008, p. 719).

ولم يعد هذا الاقتصاد محليا، بل غدا كوكبيا. فمع عولمة التجارة وحركة الأموال، ازداد انتشار المخدرات، منتقلة من البلدان المنتجة للمواد المخدرة إلى البلاد المستهلكة لها بكثافة، حتى غدت المخدرات سلعة رائجة، ورخيصة الثمن. فالهيروين لم يعد سلعة غالية، بل أصبح متاحا فى البلدان كثيفة الاستهلاك كبريطانيا (Ibid., p. 722). علاوة على ذلك فإن تدفق حركة الهجرة عبر العالم، يسر للوافدين الجدد سبلا ميسورة يطرقونها لتوفير كميات كبيرة من المخدرات من بلدانهم المصدرة إلى البلاد التى وفدوا عليها.

ويضاف إلى عوامل حركة التجارة العالمية، وتوفر رؤوس الأموال المنتقلة عبر المكان، بصورها الشرعية وغير الشرعية، واتساع مساحة حركة الهجرة، ازداد الطلب

على الاستهلاك. وصرنا فى الوقت الراهن مقيدين بما يصفه زيجمونت بومان بمجتمع الاستهلاك، مجتمع الاستهلاك المظهرى الذى أضحى بديلا لمجتمع الإنتاج السابق عليه. ولم يعد الاستهلاك فى ظل التطورات الجديدة مقتصرا على الأغنياء، بل اخترق كافة الشرائح الاجتماعية، ما دفع إلى شراهة استهلاك المخدرات والإقبال عليها، فى إطار الاقتصاد غير الرسمى (Ibid., p. 724).

غير أن تبعات العولمة والاستهلاك المفرط لا تنطوى فقط على انتشار المخدرات، لكنها تسهم كذلك فى الوقوع فى حيرة بين نسقين قيمين: نسق الزهد البروتستانتى أمام نسق الإفراط فى الاستهلاك، والموازنة بين النسقين مستحيلة، فتكون الغلبة للاستهلاك المظهرى وتشبع الفرد بالمتعة المفرطة، حتى غدا ذلك من حقوقه مع اتساع مدى ديناميات الرأسمالية الاستهلاكية وانتشارها على وجه البسيطة (Reith, 2004, p. 286)، بل لعل استهلاك الإدمان قد ارتبط هو الآخر بإعادة تشكيل ذات الفرد. فإذا كانت إرادته هى المتحكمة فى عملية الاختيار، وتجعل منه فردا مسئولا عن أفعاله، أمام المجتمع والسلطة، فإن الإفراط فى الاستهلاك يعمل فى المسار المضاد، ويقوض أفعال الإرادة، إذ بدلا من أن يكون الفرد مسئولا ومسيطرا على المادة والطبيعة، يصبح هو نفسه موضوعا للاستهلاك، وإذا عدنا للأصل اللغوى لكلمة "استهلاك"، سنجدها فى أصلها اللاتينى تنطوى على معانى التدمير والسحق. وهنا نتذكر أيضا مفهوم فيتشية السلعة، الذى يعنى خضوع الفرد لسلعته. ففى ظل عصر الرأسمالية الاستهلاكية، لا يصبح الفرد مسيطرا على الطبيعة والسلعة، بل فاقدا للسيطرة، ولحريته، ولتحمل المسئولية، خاضعا لقوة المخدر (Ibid., p. 286).

الدراسة التاريخية لمفهوم الإدمان

استفاد الباحثون فى الاتجاه النقدى من مفهوم "الحفر المعرفى"، الذى يعنى فهم التصورات والمفاهيم فى إطار "النظام المعرفى" الذى ينتجها، والسياق الاجتماعى

المنتجة فيه، فى ظل الاعتقاد بصيرورتها وتحولها وتغير هويتها من مرحلة تاريخية لأخرى. وهو ما استوعبه وطبقه كل من جيردا ريث وتوبى سيدون.

إذ قامت جيردا ريث بالتمييز بين تحولين شهدهما مفهوم الإدمان. أولهما جاء مع نهاية القرن التاسع عشر، حيث تشكل خطاب حول الإدمان، هو نتاج اتفاق الدولة القومية الصناعية والمؤسسة الطبية، خطاب يصف الإدمان بـ"مرض الإرادة". فقد ساد مع المجتمع الصناعى نسق قيمى وأخلاقى تحرص فيه الطبقة الوسطى الصناعية على زيادة الإنتاج والانضباط فى العمل، الأمر الذى يتطلب "إرادة"، قادرة على الإنتاج، ومنضبطة بالنوازع الأخلاقية. ولكن مع زيادة معدلات الاستهلاك فى ظل وفرة السلع الاستهلاكية وارتفاع المستوى الاقتصادى، ساد الخوف بين الباحثين الاجتماعيين، حتى أن إميل دور كايم أنذر بالوقوع فى مغبة الانتحار جراء هذه الرغبة المحمومة فى الاستهلاك. هنا تشكل خطاب أخلاقى دينى حول الإرادة باعتبارها الملكة الأخلاقية العليا التى تتحكم فى الجسد، شجعت عليه الدولة وأسست له المؤسسة الطبية. وأصبحت شخصية المدمن موصومة بالانحراف وضعف الإرادة، لأنها تهدد عملية الإنتاج واستقرار النظام الاجتماعى. بل واستغل مفهوم "ضعف الإرادة" لوصم جماعات بعينها؛ حيث كان المفهوم – مفهوم ضعف الإرادة – أداة ضبط وانضباط اجتماعى، فمن خلاله وصفت الطبقة العاملة، والنساء، والمهاجرين بالضعف والوهن، حتى بزغ ما يمكن وصفه بـ"مراتب الإرادة"، بحيث تصبح هذه الجماعات فى المراتب الدنيا. إذ ينظر إلى استهلاك الطبقة العاملة ونسائها كشر محدق، بينما يتم التسامح مع نساء الطبقة الوسطى، وربط استهلاكهن المفرط بأمراض كالهستريا (Ibid., pp. 287-290).

ومع نهاية القرن العشرين، سلك المفهوم سبلا جديدة، حيث ظهرت "هويات جديدة"، ارتبطت بعمليات الإدارة والانضباط فى مجتمعات الليبرالية الجديدة. والواقع

أن العلوم المعنية بالإدمان قد أصبحت متناقضة فى عملها. فقد أصبحت تحمل أبعادا موضوعية، عبر استعانتها بمؤشرات موضوعية، توصف بالحتمية البيولوجية، حيث يعلل المرض بالإفراط في المواد المستهلكة نفسها. ولكنها مع الوقت أصبحت تدرج فى اهتمامها أبعادا ذاتية تتمثل فى مشاعر وتصورات المستهلك، وما يقره من معلومات حول قدرته على الفاعلية والانجاز؛ أى عدم القدرة على التحكم. وهو الأمر الذى صنع أرضا جديدة للاهتمام بأنواع جديدة من المدمنين، غير القادرين على وقف الاستهلاك وكبح جماحه: مدمنو الإنترنت، ولعب القمار، والشرهون، ومدمنو السكريات، ومدمنو التسوق والجنس... إلخ. بل وأصبح الأفراد يعلنون عن هوياتهم بوضوح، وينشئون الروابط التى تتولى أمورهم، كالروابط المستقلة التى تعالج الأشكال الجديدة للإدمان، ولذلك ليس غريبا أن تبدأ عملها بعبارة يعرف فيها العميل نفسه بأنه "مدمن". وهكذا مع اتساع مدى الرأسمالية والاستهلاك، ومد شبكة المعرفة الطبية، بحيث غدت خارج المؤسسة الطبية الرسمية، تولد معنى جديد للإدمان، وذواتا جديدة، تتولى علاج نفسها بنفسها (Seddon, 2010).

كذلك قدم توبى سيدون فى كتابه "تاريخ للمخدرات" (Reith, 2004) تصورا لتطور مفهوم الإدمان وتاريخه، وتحولاته التى طرأت، مرتبطا بالحرية. إذ يرى أن مفهوم الحرية داخل الفكر الليبرالى قام بتشكيل مفهومنا عن مشكلة المخدرات طوال القرنين السابقين. فهو يطرح معنى الإدمان كمعنى رأسمالى، ارتبط بتداول المخدرات كسلعة عالمية، وبالتالى فما شهدته الرأسمالية من تحولات ألقى بظلاله على مشكلة المخدرات. وقسم مراحل معالجة القضية إلى ثلاثة مراحل تاريخية. إذ بدأت المرحلة الأولى من ١٧٨٠ إلى ١٨٦٠، وشهدت فترة التكيف مع المجتمع الصناعى الحديث. وهى فترة توصف تنظيميا بالانتقال من الاقتصاد المنضبط إلى اقتصاد ليبرالى جديد يسترشد بمفهوم "دعه يعمل دعه يمر". وشهدت ضعف أو غياب الرقابة على إنتاج

وبيع وحيازة وتعاطى المواد العلاجية وذات التأثير النفسى. وفى نهايتها بدأ الشك فى بعض هذه المواد.

وتمتد المرحلة الثانية من عام ١٨٧٠ إلى فترة الستينيات من القرن العشرين، وشهدت التحول من الليبرالية الكلاسيكية إلى الليبرالية الاجتماعية، مما أدى فى نهاية المطاف إلى بناء دولة الرفاة. وحدث خلالها "الانقسام التنظيمى الكبير" بتأسيس نظام حظر عالمي لفئة جديدة من العقاقير الخطرة. إذ كان تمرير قانون العقاقير الخطرة فى عام ١٩٢٠ إيذانا ببدء نظام الحظر فى بريطانيا، بعد إبرام اتفاق دولى كجزء من معاهدة فرساى للسلام. وكان هذا "الحدث" لحظة رئيسية فى تطور مفهوم الإدمان. فهو أولا يمثل بزوغ مفهوم "العقاقير الخطرة" كفئة منفصلة وخاصة من المواد المؤثرة فى العقول. وثانيا، يدل على بداية نشر إطار قانونى جنائى لتنظيم هذه الفئة الجديدة من "العقاقير الخطرة". وثالثا، ساهم فى توسعة سيادة وهيمنة الأطباء فى إدارة المشكلة.

وتغطى المرحلة الثالثة فترة السبعينيات حتى الوقت الحالى، التى شهدت على انهيار سياسة الرفاة الاجتماعى وظهور الليبرالية الجديدة. تركيزا متزايدا لإدارة المخاطر التى يتسبب فيها مدمنو المخدرات، وتضر بهم وبالآخرين. وقد ركز هذا النهج على أضرار المخدرات المحتملة على الصحة والسلامة والأمن. ويمثل صدور قانون المخدرات لعام ٢٠٠٥ حدثا أساسيا فى هذه المرحلة، حيث ساعد على بلورة هذا النهج ومد مداه، واعتمد على تدابير جنائية قسرية، واستهدف بعقوباته من يبيعون المخدرات داخل المدارس أو حولها.

انتقادات وتجديدات

لقد تعرض التوجه ما بعد البنيوى لانتقادات عديدة، استفادت منها وطورت تصوراتها فى ضوءه، وطرحت بمقتضاها مجالا بحثيا جديدا، وموضوعات بحثية مستجدة على أجندتها العلمية.

يأتى على رأس الانتقادات تجاهل محاولات التأريخ لموضوع الإدمان مسألة الجوانب البيولوجية لحساب التعامل معها كظاهرة ثقافية محملة بالمعانى السياسية والاجتماعية. فعندما يحاول أحد المؤرخين تقديم الجوانب البيولوجية، أو أن يعرض لتصورات علم البيولوچيا، فإنه عادة ما يضع هذه التصورات فى تعارض مع التصورات الثقافية. بينما ينبغى مقاربة الموضوع بسد الخلافات بين التحليلات البيولوچية والتصورات الثقافية، بين البحث البيولوچى والدرس الثقافى. النقد ذاته وجهته الدراسات النسوية، وجوهره هو عجز هذا الاتجاه عن فهم الجوانب المادية لحساب دراسة اللغة والثقافة فى تشكيل الواقع، وهو ما يعنى الفصل ضمنا بين الطبيعة والثقافة، البيولوچيا والمجتمع، الأبعاد الإنسانية وغير الإنسانية (Fraser et al. 2014, p. 8).

إزاء هذه الانتقادات الموجهة للاتجاه النقدى، طرأت موضوعات جديدة على أجندة بحوث هذا الاتجاه، تمثلت فى: دراسة المحتوى العلمى والتقنى لعلم الإدمان Addiction Science، لا باعتبار هذا المحتوى مضمونا أيديولوچيا، أو آلية من آليات الضبط الاجتماعى؛ ودراسة فاعلية المواد المخدرة وغيرها من المواد التى تتسبب فى نشوء الإدمان بعامة؛ والبحث فى التأثير الوجدانى والجسدى لها (Ibid., p. 9).

خاتمة

إن واحدة من ميزات علم الاجتماع هو محاولته تقديم رؤية نقدية لظاهرة الإدمان المسلم بها. فالظاهرة بكل ملابساتها وتعقيداتها فى حاجة لمزيد من الدراسات التى تهتم بالأبعاد التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وتتراوح الدراسات السوسيولوچية من الدراسة الإثنوجرافية للأفراد الذين يستخدمون المخدرات حتى المسوح العامة التى تصف انتشار التعاطى وخصائص المتعاطين. وكانت الظاهرة منذ البدايات الأولى للعلم موضوعا من الموضوعات التى اهتم بها التنظير، وبالتحديد فى إطار دراسة السلوك الإجرامى. وصار الاهتمام فى مسارين تأصلا باكرا: الاتجاه المحافظ، ممثلا فى الوظيفية الكلاسيكية والبنائية الوظيفية، وما تفرع فيما بعد من نظريات نشأت كنظريات صغرى؛ والاتجاه النقدى الذى تمتد أصوله من الماركسية مرورا بمدرسة فرانكفورت، حتى الجهود الراهنة الممثلة فى الاتجاه ما بعد البنيوى.

وقد حرصت الورقة على تقديم أحد الاتجاهين، وهو الاتجاه النقدى، اعتبارا بإمكانية سد الفراغ القائم فى التنظير حول الظاهرة فى هذا المسار التنظيرى المتميز.

والواقع أن التحليل النقدي لظاهرة الإدمان موضوع يجد صعوبات جمة فى السياق الغربى، لأنه بالأساس يصطدم بمصالح قوى عديدة تعمل داخل الظاهرة، فهى تصطدم بالمؤسسة العلاجية الطبية، وما قدمته من تصورات حول مفهوم الإدمان، وتواجه الشركات المنتجة للعلاج التى تسيطر على سوق البحث والنشر، وتحول دون نشر أبحاث تضر بمصالحها. ومع ذلك فإن هذا النوع من الدراسات النقدية له أهميته، بقدرته المتميزة على نقد سياسة مواجهة الإدمان من أسفل، عبر الدراسة الإثنوجرافية لرؤى المتعاطين، التى تساعد فى فهم إشكالات العلاج وتهديداته لحياة المتعاطين، وما يعانيه المتعاطون من خطابات منحازة ضدهم.

ويمكن من واقع ما قدمته الورقة الراهنة، ومما سبق أن طرحته الباحثة الأمريكية جولى نيزرلاند (Netherland, 2012)؛ بشأن ملامح الاتجاه النقدى، أن نقف على عدد من الشواغل الأساسية له: أولها الاهتمام بالأبعاد التاريخية للظاهرة، بالحفر المعرفى لمعنى الإدمان، لفهم الجذور التاريخية لخطابنا وتصوراتنا وسياساتنا فى مواجهة ومكافحة الظاهرة وعلاجها. ثانيها التعريف بخبرات المتعاطين ورؤاهم ومشاعرهم سواء تجاه المواد التى يتم تعاطيها أو إدمانها، أو سواء العلاج الذي يحصلون عليه، بالنظر فى تأثيرات أى منهما على جسد المتعاطى وحياته اليومية، وباعتبارها تعبر عن رؤية عالم أو النظر لها كجزء من "ثقافة جماعة اجتماعية ينتمى لها". وثالثها، الكشف عن علاقات القوة والسلطة التى تربط المؤسسة الطبية بالسلطة السياسية، وسياسات التحيز العنصرية، والفرضيات الأخلاقية التى تعمل على تشكيل تصوراتنا حول الإدمان والمدمنين. ما يستدعى الاهتمام بالخطاب السائد حول الإدمان فى المؤسسة الطبية والإعلامية، وغيرها من المؤسسات، ودوره فى تشكيل سلوكيات الأفراد، والمعايير الثقافية، وسياسات التعاطى مع الظاهرة.

ويبقى أخيرا التأكيد على أن الورقة الراهنة لم تستوف كل أبعاد التصورات النظرية من وراء ظاهرة الإدمان وتعاطى المخدرات، لكنها اهتمت بجانب منه، وهو الاتجاه النقدى، الذى قد تمتد جهوده إلى دراسات أخرى، كالدراسات النسوية التى تهتم بالأبعاد العنصرية للخطاب العلمى الاجتماعى والطبى والإعلامى المقدم حول المرأة المدمنة، أو الدراسات العرقية التى تتناول بالاهتمام الأبعاد العنصرية فى السياسات أو التصورات القائمة حول المدمنين السود، أو دراسات ما بعد الاستعمار التى تهتم بدراسة المعرفة الطبية باعتبارها معرفة استعمارية وتبين التعارض بين ثقافة التعاطى التى يقدمها المستعمر وسيطرته على اللذة المترتبة عليها، ومواجهة المستعمرين لهذه السيطرة، مما لا يسع المقام لعرض جهودها.

المراجع

إدواردز تيم (محررًا). (٢٠٠٨). النظرية الثقافية: وجهات نظر كلاسيكية ومعاصرة، ترجمة وتقديم محمود أحمد عبدالله، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ص ص ١١٠-١١١.

Adrain M. (2003). How can sociological theory help our understanding of addiction substance use and misuse, Volume 38, Number 10, p. 1395.

Bourgois p. (2000). Discipling addiction, culture, medicine and psychiatry, 24, p.169.

Carr S. (2006). Secrets keep you sick: Metalinguistic labor in a drug treatment program for homeless women, Language in Society, Volume 35, No. 5, p. 635.

Engels F. (2008). The condition of the working class in 1844, Cosimo.Inc, p. 93.

Fraser S. et al. (2014), Habits: Remaking addiction, Palgrave Macmillan, Basingstoke, UK, p. 5.

Frazzetto G. & Anker S. (2009). Neuroculture, Nature Reviews, Volume 10, pp. 815-821.

Gelder K. (2007). Subcultures: Cultural histories and social practice, Routledge, London, pp. 87-88.

Goode E. (2007). The sociology of drug use, in 21st century sociology: A reference handbook, Edited By Chief Clifton D. Bryant, Dennis L. Peck, Sage Publications Inc., p. 420.

Hebdige D. (1979). Subculture: The meaning of style, Routledge, London, p. 148.

Maningp., (eds). (2007). Drugs and popular culture: Drugs, media and identity in Contemporary society, Willan Publishing Press, p.13.

Merton R. (1938). Social structure and anomie, American Sociological Review, 3, p. 678.

Netherland J. (2012). Introduction: Sociology and the shifting landscape of addiction, Advances in Medical Sociology, Vol. 14, pp. xvii-xx..

Nissen M. (2012) Writing drug cultures, Culture and Psychology, Volume 18, Number 2, pp. 198-218.

Reith G. (2004). Consumption and its discontents: addiction, identity and the problems of freedom, The British Journal of Sociology, 55, 2, p. 286.

Seddon T. (2008). Drugs, The informal economy and globalization, International Journal Of Social Economics, 35, 10, p. 719.

Seddon T. (2010). A history of drugs: Drugs and freedom in the liberal age, Routledge Press.

Smith C. (2010). Socio-spatial stigmatization and the contested space of addiction treatment: Remapping strategies of opposition to the disorder of drugs, Soc Sci Med., 70 (6), pp. 859-861.

Sulkunen p. (2002). Between culture and nature, Contemporary Drug Problems, Issue 29, p. 258.

Weinberg D. (2011). Sociological perspectives on addiction, Sociology Compass, Volume 5-4, p. 300.

Willis p. (2006). The cultural meaning of drug use, in resistance through rituals: Youth subcultures in post-war Britain", Stuart Hall and Tony Jefferson, (Editors), Routledge, London, p. 93.

Willis p. (2014). Profane culture, Princeton University Press, Princeton, p. 178.
Available at:
https://www.academia.edu/9176993/Cultural_Studies_Perspectives_on_Drugs_and_Alcohol

Abstract

Sociological Analysis of Addiction: A Critical Approach

Mahmoud Abduallah

The current article discusses the sociological analysis of addiction phenomenon. It mainly focuses on the critical trend, specifically in the works of cultural studies school, represented in Paul Willis efforts; and the post structuralism approach. The article also presents the critical considerations related to both approachs.